



الفصل الثاني

الكناية اللونية

الفصل الثاني

الكناية اللونية

يعد اللون " وسيلة هامة من وسائل التعبير والفهم، وقد دلت الأبحاث والتجارب على أنه لا يزال كنزاً مخبئاً لم يستطع الإنسان أن يصل إلى قراره. وأنه قوة موجبة تؤثر في جهازنا العصبي " (١).

ونلاحظ اللون - في الأغلب - من خلال ذكر الألفاظ الدالة عليه بوصفه مدركاً بصرياً، إذ يستثير ذكر اللون " حاسة البصر الخاصة المكلفة بتوصيل ذبذبات اللون الإيقاعية إلى المخ، وذلك من جراء استثارة المراكز العصبية وتحريكها بواسطة التخيل " (٢). كما نلاحظ اللون من خلال ذكر مفردات ليست دالة على الألوان دلالة مباشرة، وإنما تدل عليها في صورة غير مباشرة، فهي تدعو المتلقي إلى إدراك اللون بعملية ذهنية أكثر منها عملية رصد لألوان مرئية كما في الألوان المباشرة.

وقد قيمة اللون في التعبير الأدبي - سواء كان محصلاً بصورة مباشرة من المفردات، أو يتداعى منها في صورة غير مباشرة - لا يقل أهمية عن العناصر الأساسية الأخرى في بثانه كالموسيقى والعاطفة والخيال لذلك كان لحضوره في الشعر أهمية في تلوين صورته، وفي تحريك أجوائه، منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى اليوم (٣).

وانطلاقاً من أهمية اللون في النص القرآني الكريم، يحلّل هذا الفصل دراسة الكناية القرآنية اللونية، في حدود ما ورنبت فيه من نصوص كريمة، إذ نجد آيات قرآنية قد شكّلت فيها الكناية باللون بنوعيه، الأول: ذكر الألفاظ الدالة على اللون مباشرة في التعبير عن المعاني والمشاهد والمواقف النفسية المتنوعة، كالكناية باللون الأبيض، والأسود، والأزرق، والأخضر، والأصفر. والثاني: التعبير عن اللون بصورة غير مباشرة إذ يدرك اللون فيها من خلال الصورة الكنائية التي يتغلغل فيها اللون فيتداعى للمتلقى بطريقة ذهنية، فيشير

(١) اللون، محمد يوسف همام، ص ١٠. وينظر: اللغة واللون، د. أحمد مختار عمر، ص ١٤٨.

(٢) إيقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة، د. علوي الهاشمي، ص ٢٦٩. وينظر: جنل اللون في شعر خليل حاوي، د. بشرى البستاني، ص ١٦٥.

(٣) ينظر: التعبير عن اللون في الشعر العربي القديم، د. وولف دتريش فيشر، ص ١١-١٢.

بذلك إلى المعاني والإيحاءات المتنوعة، إذ إن الإيحاء بالمعاني سمة من سمات الكناية باللون لما فيها من قوة تعبيرية تتجاوز مدلولها الظاهر إلى جملة من المعاني الموحية فتتصل بالقلوب والنفوس فتلونهما بألوانها.

ولما كثرت الكناية القرآنية باللون نوعين ارتأينا دراسة كل نوع على حدة ادسجماً مع طبيعة كل نوع في سلك أسلوبه. وجعلنا كل لون على حدة، أو لونين على سبيل التقابل لما في ذلك من تصعيد الدلالة وتكثيفها.

الكناية باللون المباشر:

تنوع الصور الكنائية بالألوان المباشرة في القرآن الكريم في مشاهدتها وإيحاءاتها تبعاً للون المكنى به عن المعنى، من ذلك:

الكناية باللون الأبيض والأسود:

يتلى هذان اللونان على التقابل في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ ایمِنِكُمْ فَرُغُوا الْعَذَابَ يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِهِ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾^(١)

فكل من اللون الأبيض واللون الأسود إشارة كنائية مكثفة وذلك لقلة الوسائط بين اللون وما يشير إليه مع وضوح الدلالة، وتطوي هذه الإشارة الكنائية معاني وإيحاءات وهي تعلق على الوجه، فتشير إليها دون وسائط بين المكنى به (اللون الأبيض) والمكنى عنه (حال المؤمنين في ذلك المشهد)، والمكنى به (اللون الأسود) والمكنى عنه (حال الكافرين على التقابل)، وهذه هي الإشارة في المفهوم الكنائي^(٢) يتخذها القرآن وسيلة من وسائل التعبير الفني.

واعتمد تركيب الآية المذكورة ظواهر بلاغية متعددة في تصوير حال الفريقين في هذا المشهد، ومن شأن هذه الظواهر هو تصعيد دلالة الكناية باللون بطرقها المتقابلين. والتقابل هو الإطار الفني الذي يشد أجزاء الصورة على سبيل التضاد، وهذه الأجزاء كما هو واضح للعين الراصدة هي:

(١) سورة آل عمران ، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.
(٢) ينظر: مفتاح العلوم ، ص ١٩٤. وينظر: علم البيان في الدراسات البلاغية ، د. علي البديري ، ص ٢٨٠.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ بقابلها ﴿وَسَوْدُ وُجُوهٍ﴾ .

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بقابلها ﴿فَنَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

والتقابل بين الفريقين من شأنه " الكشف عن فنية الأسلوب وتجلي مستويات المعنى بإبعادها المختلفة " (١) لأنه يجمع بين متضادين متناقضين، وبالتضاد والتناقض يتبين الأشياء، وتجد النفس في ذكرهما مجموعتين لذة، لأن اللذة في التقاء الضدين (٢)، وبذلك فإن التضاد هوة مرتكز بنياني يتكئ عليه هذا المشهد في مكوناته وعلاقاته، لأنه يشيع في مفاصل النص حركة بين عناصر متضادة تجلي المعنى المقصود أجلى بيان (٣).

المستوى القريب في المعنى نلاحظه بالكناية اللونية الحسية في أسلوب خبري اعتمد (الاجمال): ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَسَوْدُ وُجُوهٍ﴾ ثم يتبعه التفصيل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ ...﴾ على سبيل الاطناب الفني تتجلى بلاغته في تطويل المشهد في كل لقطاته وهو يعرضه للمتلقي لترسيخ المعنى في الذهن والوجدان.

وابيضاض الوجوه كناية عن (المسرة) (٤) وحمل بعضهم الكناية على الحقيقة كما يفهم من قول الزمخشري: " واليباض من النور والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم بيباض اللون وأسفاره، وأشراقه وأبيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمدته وأسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب " (٥) والأرجح أن يفهم على الكناية كما ذهب إلى ذلك الراغب: " لأن ذلك حاصل لهم سوداً كانوا في الدنيا أو بيباضاً " (٦) فهو " مشهد حسي، ولكنه منبعث عن تأثير نفسي، ألقى ظله على الوجوه فأبيضت " (٧).

كما أن بين اللون الأبيض والحالة النفسية للمؤمنين (المسرة) التي هم فيها في موقفهم ذاك تلازماً وارتباطاً، فإن هذا اللون قد اكتسب عرفياً كثيراً من التعلق بأجواء

(١) في البنية والدلالة، د. سعد أبو الرضا، ص ٣٧.

(٢) ينظر: الروض المربع في صناعة البيع، ابن القيم، ص ١١١.

(٣) ينظر: في البنية والدلالة، ص ٤٢. وينظر: البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، د. عماد عبد يحيى، ص ٢٨٤.

(٤) المفردات، ص ٣٥٩. وينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروز أبادي: ٢ / ١٣٤.

(٥) الكشف: ١ / ٤٥٣.

(٦) المفردات، ص ٣٥٩.

(٧) مشاهد يوم القيامة في القرآن، سيد قطب، ص ٢٠٤.

الصفاء والإشراق والسعادة^(١)، ولما كان البياض أفضل لون عند العرب، فقد عُدَّ عن الفضل والكرم بالبياض حتى قيل لمن لم يتكنس بمعاب هو أبيض الوجه^(٢) كناية عن الطهر والنقاء، والعرب تقول: "لِمَنْ نَالَتْ بَغْيَتُهُ وَقَارٌ بِمَطْلُوبِهِ: ابْيَضَّ وَجْهَهُ، وَمَعْنَاهُ: الْاسْتِبْشَارُ وَالتَّهْلِيلُ، وَعِنْدَ التَّهْنِئَةِ بِالسُّرُورِ يَقُولُونَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَيَضَ وَجْهَكَ، وَيُقَالُ لِمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ مَكْرُوهٌ: اِرْبَدَّ وَجْهَهُ، وَغَبَرَ لَوْنَهُ، وَتَبَدَّلَتْ صَوْرَتُهُ"^(٣).

ونقل الرازي قول أبي مسلم الأصفهاني (ت ٣٢٢ هـ) في تفسير هذه الكناية: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ...﴾ "أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا قَدِمَتْ يَدَاهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَبْيَضَ وَجْهَهُ، بِمَعْنَى: اسْتَبْشَرَ بِنِعَمِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وَعَلَى ضِدِّ ذَلِكَ، إِذَا رَأَى الْكَافِرَ أَعْمَالَهُ الْقَبِيحَةَ مُحْصَاةً: اسْوَدَّ وَجْهَهُ، بِمَعْنَى شِدَّةِ الْحُزْنِ وَالْغَمِّ"^(٤).

ويتصاعد المعنى الكنائي للون الأبيض في الآية بقوله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ، وهو المستوى الثاني البعيد في التعبير عن حالتهم النفسية المشرفة بالنور، إذ تصور الرحمة على سبيل المجاز المرسل القائم على العلاقة الحالية، فالرحمة هي حال أهل الجنة، لذا استعملت في هذا الموضع بدلاً من المحل (الجنة)، وقوام بلاغة التعبير ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أن الرحمة تغمرهم وتحويهم، و "في" تدل على الظرفية والانغماس في الشيء^(٥)، فضلاً عن إيحاؤها بالاستقرار والاطمئنان. وهذه هي الذروة في تصوير حالهم وما هم عليه من سعادة ومسرة وإشراق.. وإزاء هذه الصورة الفانصة بالبشر والنور صورة الكافرين المشوهة وجوههم باللون الأسود، والمكروبة نفوسهم.

فاللون الأسود كناية عن (المساءة)^(٦) "فهو مشهد حسبي القى ظلّه على تلك الوجوه فاسودت للدلالة على ما يجيش في نفوسهم"^(٧) وبين هذا اللون والمساءة والحزن تلازم

(١) ينظر: اللغة واللون، ص ٦٩. وينظر: اللون في الأدب العربي القديم وملاحظات أخرى، علي الشوك، ص ٢٦. وينظر: شاعرية الألوان عند امرئ القيس، محمد عبد المطلب، ص ٥٩.

(٢) المفردات، ص ٦٦. وينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢ / ١٣٣.

(٣) التفسير الكبير: ٨ / ١٧٠.

(٤) نفسه: ٨ / ١٧٠.

(٥) القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين، ص ١٤٨. وينظر: القرآن إعجازه وبلاغته، د. عبد القادر حسين، ص ١٩٦.

(٦) المفردات، ص ٣٥٩. وينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢ / ١٣٤.

(٧) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٢٠٤.

وارتباطه، وقد ارتبط اللون الأسود عرقياً بأجواء الكآبة والحزن^(١)، ويتصاعد معنى الكناية بالاستفهام الإنكاري بالهمزة المتضمن معنى التوبيخ والتفريع مع التعجب من حالهم^(٢) ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ مَعْنِيكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ فهو عذاب نفسي فوق عذابهم المادي، وهم يتحسدون هذين اللوتين من العذاب على نحو عميق كما أوحى الاستعارة المكنية ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾، فالعذاب لا يُذاق وإنما يحس به، ولكن لما كان الذوق أعمق أثراً في الشعور بالعذاب استعاره، فسببه العذاب بشيء محسوس يُذاق، ثم حذفه وأبقى شيئاً من لوازمه وهو (الذوق) على سبيل الاستعارة المكنية^(٣)، وبذلك فالآية تجمع بين التعذيف بالقول، وهو عذاب نفسي من جهة والعذاب المادي^(٤) الذي يعاينونه من جهة أخرى.

وهذا نلاحظه في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يُكنى فيه باللون الأسود عن العذاب قوله - تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾^(٥).

فهذه وجوه المشركين الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد^(٦)، تتحول بالكناية ﴿ مُّسْوَدَّةٌ ﴾ إلى خلق مشوه يشير الامتعاض والسخرية على المعنى الحقيقي القريب للكنائية، أما المعنى البعيد المكنى عنه فهو تصوير للحالة النفسية التي هم فيها من حزن وكمد وكآبة، فالكنائية تجسد ذلك على وجوههم كمداً من الحزن واسوداداً من الكآبة. والكنائية التي صوّرت وجوههم مشوهة فيها إحياء على أنهم قد شوهوا فطرهم الصافية التي فطرها الله على التوحيد ﴿ فِطَرَتُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾^(٧) شوهوها في حياتهم الدنيا باتخاذهم الشريك والولد، ويتصاعد عذابهم بتفريعهم بالاستفهام التقريري بالهمزة: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، وتتكثف دلالة السخرية بهم بلفظة ﴿ مَثْوًى ﴾ وهي من قبيل العكس في الكلام للسخرية منهم والتهكم بهم، لأن المَثْوَى في الحقيقة المنزل والمأوى، يُقال: " ثوى

(١) ينظر: اللغة واللون، ص ١٨٦. وينظر: شاعرية الألوان عند امرئ القيس، ص ٥٨.

(٢) ينظر: الكشف: ٤٥٣ / ١.

(٣) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، ص ٧٩.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ٢ / ٢٦. وينظر: ألفاظ الشواهد في القرآن الكريم، عماد عبد يحيى، ص ١٩٦.

(٥) سورة الزمر: الآية ٦٠.

(٦) ينظر: الكشف: ١٠٧ / ٤. وينظر: صفوة التفسير: ٨٦ / ٣.

(٧) سورة الروم، من الآية: ٣٠، والفطرة: الخلقة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره. ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤١٦ / ٣.

بالمكان: نزل فيه، وبه سمي المنزل مَثْوًى. والثَوًى: الموضع الذي يُقام به. ومَثْوًى الرجل: منزله. وأَثْوَانِي الرجل: أضافني. يُقال: أنزلني الرجل فأثْوَانِي ثَوَاءً حسناً^(١)، فليس جهنم منزلاً للمتكبرين يجدون فيه الطمأنينة والراحة، وإنما هو العكسي في الكلام تهكماً بهم وسخرية^(٢) يصعد من عذاب المشركين الكاذبين يتنوع فيه المادي والنفسي فبنس المَثْوًى وبنس العذاب.

وبصور القرآن بكناية اللون الأسود في موضع آخر حال الذي يبشر بولادة بنت له، يصوره لا مجرد حزين أو مغتم، وإنما يصوره وقد تحول بالكناية إلى صورة غير صورته، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَإِنَّا بُشِّرْنَا أُمَّهُم بِأَلْفَنِي ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ **يَنْزَوِي مِنَ الْقَوَارِ** **مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ أُمُّهُ عَلَى هَوْنٍ لَّا يُدْرِي فِي الْغَرَابِ** **أَلَا مَسَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ** **﴿٣﴾**

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وصورة الذي يبشر بولادة بنت بهذه المثابة مبنية على الكناية ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ وعلى الاستعارة التصريحية ﴿كَظِيمٌ﴾. فقد تواسجت الكناية والاستعارة في تصوير المعنى على نحو عميق. قال الطبري في ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾: "كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسود وجهه"^(٤) فهو يغالب ثورة من الحزن والضيق ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: "مملوء غيظاً وغماً"^(٥) يكتمه ويداريه كما صورت الاستعارة ﴿كَظِيمٌ﴾ فقد شبهه بملاء قلبه بالغم والحزن بامتلاء القربة بالماء، وشبهه كتمانته وضيقه بما يصر به فم القربة المملوءة بالماء حتى لا يخرج منها شيء^(٦) ثم يصوره وقد شعر بخزي وهوان يجعلانه لا يستطيع مواجهة الناس فينزوي عنهم ويخفي ﴿يَنْزَوِي مِنَ الْقَوَارِ مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾، فهو يعاني ذلك الصراع العنيف الذي يثور في نفسه، خوفاً من العار الذي يحلقه بسبب البنت، كأنها بلية وليست هبة إلهية^(٧).

(١) لسان العرب: ١٤ / ١٢٥ - ١٢٦ (ثوا).

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص ٩٦.

(٣) سورة النحل، الآيات: ٥٨ - ٥٩. وينظر: سورة الزخرف، الآية ١٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٠ / ١١٦.

(٥) صفوة البيان لمعاني القرآن، ص ٦٢١.

(٦) ينظر في توجيه هذه الاستعارة: التفسير الكبير: ١٨ / ١٩٦. والقرآن والصورة البيانية، ص ١٥٢.

(٧) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حقني، ص ١٧١ - ١٧٢.

فالكناية باللون الأسود تكثيف للحالة التنفسية لذوي بَشَرٍ بالأنثى. ولا شك في أن الكناية فيها سخرية لاذعة، وهي تصور هذا الشخص مسود الوجه، متوارياً عن الناس، مغالباً لصراع رهيب في نفسه من مجرد أن يبشر بولادة بنت له، تجعل هذه الكناية كل من تولد له بنت في هذا المجتمع، قبل أن يفكر في نسبتها إليه، وقبل أن يشعر بأثر ذلك في نفسه، يتمثل هذه الصورة المنفرة، التي لا يرضاها لسان لنفسه، ولا يرضى أن ينظر إليه الناس فيروه فيها^(١).

ونرى أن مجيء الكناية باللون الأسود في سياق وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر كما حكى القرآن ذلك^(٢) فضلاً عن أنها تجلّي هوان المرأة وما تلاقيه من تعسف وظلم في المجتمع، دلالة قوية على تبشيع هذه العادة الجاهلية وتقطيعها، إذ الملاحظ أن هذه الكناية اللونية لا ترد في القرآن إلا في وصف حال الكافرين والمشركين في مشاهد يوم القيامة، وهي مشاهد عصبية مروعة. ولا تشذ هذه الكناية إلا في مجيئها في سياق (وَأَد البنات) مكررة مرتين^(٣)، فيعمل التكرار على تقطيع هذه الجريمة وتبشيعها على نحو مؤكد. ويتصاعد هذا المعنى بذكر ﴿الْمَوَدَّة﴾ في سياق الانقلاب الكوني الذي سيحدث يوم القيامة، ويحسن بنا إيراده، وهو قوله - تعالى -: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْآلُفُوشُ حُيِّرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّمَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾^(٤).

فذكر ﴿الْمَوَدَّة﴾ في هذا السياق يكتسب معنى التهويل والتعظيم لأشائها. وكلن السياق يعرضها حدثاً كونياً من هذه الأحداث العظام، وهي تسأل عن جريمة وأدها، فكيف يواندها؟^(٥) وفي ضوء ما سبق يتبين أن الكناية باللون الأسود تأتي في سياق مشهدين من مشاهد يوم القيامة، وفي سياق جريمة وأد البنات مكررة فتضفي على المعنى التعظيم والتهويل. أما كناية اللون الأبيض فهي تأتي في سياق مشهد واحد من مشاهد يوم القيامة مقابلة للون الأسود وقد سبق ذكره.

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٧٢.

(٢) ينظر: سورة الأنعام، الآية: ١٥١. وسورة الأسراء، الآية: ٣١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٥٨. وسورة الزخرف، الآية: ١٧.

(٤) سورة التكويز، الآيات: ١-٦.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٤٧٩ - ٤٨٠.

الكناية باللون الأزرق:

ورثت الكناية باللون الأزرق في القرآن الكريم مخصصة بالتعبير عن حال المجرمين وما هم عليه من سوء حال في مشهد واحد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ^(١) يَخْخَفُونَ يَتَنَبَّهُونَ إِنَّ لَيْسَتْ لَهُمْ إِلَّا عَشْرًا ^(٢) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنَّ لَيْسَتْ لَهُمْ إِلَّا يَوْمًا ^(٣)

الكناية ﴿زُرْقًا﴾ رمز ينقلنا إلى المعنى المكنى عنه مباشرة بما يرسمه من لون أزرق يميز المجرمين عند حشرهم، وهو يرتسم حول حقائق عيونهم، فتكون صورتهم مغيرة لحقيقتها ترمز على نحو مكثف إلى المعنى المكنى عنه، وهو صفة سوء حالهم وما هم فيه من كمد وكربة، قال الزمخشري: "في عينه زرق وزرقة، وزرقت عينه وأزرقّت وأزراقّت، وعين زرقاء وعيون زُرُق" ^(٤) وقال في تفسيره: "قيل في الزرق قولان، أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب، لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين. والثاني: أن المراد المعنى، لأن حذقة من يذهب نور بصره تزرّق" ^(٥) وجاء في لسان العرب في هذه الكناية: "إنما معناه أزرقّت أعينهم من شدة العطش، وقيل: عمياً يخرجون من قبورهم بصراء كما خلقوا أول مرة ويعمون في المحشر، وإنما قيل ﴿زُرْقًا﴾ لأن السواد يزرّق إذا ذهب نواظرهم، ويقال: زرقاً طامعين فيها لا ينالونه" ^(٦)

فالكناية تشير إلى إحياءات متعددة تتجمع لوصف حال المجرمين عند حشرهم: إحياء العطش من شدة ما هم فيه في ذلك الموقف، وإحياء العسى لأنهم عطّلوا أبصارهم في حياتهم الدنيا عن النظر في آيات الله واتّباع الهدى كما أخبر القرآن عن ذلك في مواضع أخرى ^(٧)، وكرهوا ما أنزل الله وبغضوه، فهذا هم في صورتهم البغيضة كما تصورهم الكناية، فأبغض لون هو اللون الأزرق - ليس لذاته - وإنما يكون بغيضاً مستقبلاً عندما

(١) سورة طه، الآيات: ١٠٢-١٠٤.

(٢) أساس البلاغة، ص ١٩١ (زرق).

(٣) الكشف: ٦٨ / ٣، وينظر: المفردات: ٣١١، وينظر: اللغة واللون، ص ٤٠.

(٤) لسان العرب: ١٠ / ١٣٩ (زرق).

(٥) ينظر: سورة طه، الآيتين ١٢٤-١٢٥ مثلاً.

يرتسم حول حدقات أعينهم فيشوه خلقتهم فهي منقرة تبعث السخرية من هؤلاء المجرمين في مشاهدهم، وهم يعانون الخزي والهوان، والكمد والكربة.

ويمكن أن ننصوّر اللون الأزرق وهو يرتسم على وجوههم دون تخصيص حول حدقات عيونهم كما قال بعض المفسرين، أي يدشر المجرمون زرق الوجوه من الغم والكربة^(١) وذلك لأن القرآن لم يخصص في رسم صورتهم، وبذلك يكون اللون الأزرق كناية فيها غرابة في التصوير تميز المجرمين في ساحة الدشر من غيرهم، لأنه لم يعهد عند البشر اللون الأزرق صفة لبشرتهم، وإنما هو معهود في ظواهر طبيعية كالسماء والماء.. وهو مصدر إثارة جمالية تتدسها النفس الإنسانية.. فعندما ينقله القرآن ويغرسه في هذا المغرس الجديد (وجوه المجرمين) في المحشر فإنه يحقق تلك الغرابة والجدة في التصوير إذ فيه إحياء السخرية منهم، فضلاً عما أشار إليه من كمد وغم وكربة من شدة الموقف، ومن شدة موقفهم وكربة يتضائل في حسهم الزمان، وتتطوي معه الحياة التي كانت مسرحاً لأجرامهم **يَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْ لَهُمْ طَرِيقَةٌ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۖ**

ومن شأن هاتين الآيتين تصعيد معنى الكناية إذ تجلي عذابهم النفسي وحيرتهم فهم يتهايمسون بينهم ويسر بعضهم إلى بعض ولا يرفعون صوتاً من الرعب والهول، فهذا هي الحقيقة تتكشف لهم، فليست تلك الحياة الدنيا التي أجروا فيها، مطمئنين إليها إلا عشر ليال بل هي يوم كما يقول أرشدهم وأصوبهم. قال الزمخشري: "تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا. أما لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر، لأن أيام السرور قصار، وأما لأنها ذهبت عنهم ونقصت، والذاهب وإن طال مدته قصير بالانتهاء.. وإما لاستطاعتهم الآخرة وأنها أبد سرمدي يستقر إليها عمر الدنيا، وينقل لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة، وقد استرجح الله قول من يكون أشد تفاؤلاً منهم في قوله - تعالى -: **إِذْ يَقُولُ أَمْ لَهُمْ طَرِيقَةٌ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۖ**"^(٢) وفي تخافتهم هذا وشعورهم نحس منهم الحسرة والندامة، فضلاً عن السخرية منهم جزاء بما كانوا يجرمون.

(١) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن الكريم، ص ١٠٥. وينظر: التعبيرات القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، ابتسام مرهون الصغار، ص ١٥٢.

(٢) الكشف: ٦٩ / ٣.

و غالباً ما يخرج القرآن تصوير عذاب المجرمين على نحو مخصوص، نحس فيه الشدة في عذابهم، والتعنيف بهم بالقول حتى وهم يلقون في نار جهنم، من ذلك هذه الصورة الكنائية المتصلة بالكناية السابقة صورة ومعنى في قوله - تعالى - : ﴿ يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسْمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ وَيَأْتِي مَا آتَى رَبُّكُمْ كَذِيبَانِ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ ﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ؕ (١)

الصورة الكنائية: ﴿ يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسْمَتِهِمْ ﴾ فللمجرمين علامة لونية تميزهم يُعرفون بها، فقوله ﴿ بِسْمَتِهِمْ ﴾ فيه إشارة إلى الكناية بالألوان الأزرق، فضلاً عن الكناية باللون الأسود، فهما من علاماتهم، قال الزمخشري: " يعرفون بسماهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون " (٢) أي: يُعرف يوم القيامة أهل الاجرام بعلامات تظهر عليهم.. " قال الحسن: سواد الوجه وزرقة العين كقوله - تعالى - : ﴿ وَتَحْشُرُ الْمَجْرِمِينَ بَوْمِلِ زُرْقًا ﴾ (٣)

واجتماع هذين اللونين فيه دلالة عميقة على الكناية والغم، فهما تجسيد لما يعتل في نفوسهم من شدة الموقف وهوله وما يعانين من العذاب المهيئ الذي صورته الكناية الأخرى ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ والاهالة واضحة في صورة العذاب التي يؤخذ بها المجرم على اذفراد لتحويل صورتها وتبشيعها وابرارها للعيان ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ فهي كناية عن شدة العذاب وعذفه، أي: " يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره، وقيل تسحبهم الملائكة: تارة تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام " (٤) وقال ابن عباس: " يؤخذ بناصية المجرم وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب ثم يُلْقَى في النار " (٥).

وهم في هذه الحال من العذاب الشديد المروع المهين يسألون سؤال التوبيخ والتقريع زيادة في العذاب النفسي فوق عذابهم المادي ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ ﴾ أي " يُقال لهم تقيعاً وتوبيخاً هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم " (٦) قال ابن كثير: " هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً " (٧) وهم ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ؕ (٨)

(١) سورة الرحمن، الآيات: ٤١ - ٤٤.

(٢) الكشف: ٣٥٨ / ٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ١٧٥.

(٤) الكشف: ٣٥٩ / ٤.

(٥) صفوة التفسير: ٢٩٨ / ٣.

(٦) المصدر نفسه: ٣ / ٣٩٨.

(٧) تفسير القرآن العظيم: ٢٧٧ / ٤.

﴿أَي: " يترددون بين نار جهنم وبين ماء حار بلغ النهاية في الحرارة، قال قتادة: يطوفون مرة بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والحميم الشراب الذي انتهى حره " (١)﴾
وهكذا فإن الكناية باللون الأزرق التي تواسجت معها الكناية ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ﴾
بالمعنى والصورة، فضلاً عن الكناية التي صوّرت عذابهم في نار جهنم ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأُقْلَامِ﴾ تجلي على نحو مخصوص العذاب بنوعيه: المادي والنفسي، الذي يواجهه المجرمون يوم القيامة.

الكناية باللون الأخضر والأصفر:

يشير القرآن الكريم باللون الأخضر والأصفر في بعض آياته التي يمكن حملها على الكناية إلى دلالات متضادة، وذلك من خلال هذين اللونين في سياق عالم الذبابة ذي الخلق المعجز والمعاني المتدفقة. إذ تتمخض عنهما دلالات متضادة بين الموت والفناء، والانتبعاث والحياة (٢).

الكناية باللون الأخضر في معناها الحقيقي القريب تشير إلى الحياة المنبثقة من أعماق التربة الميتة. والكناية باللون الأصفر في معناها القريب تشير إلى الموت والتحطم بعد الحياة النامية الزاهية.

ولا تنف الدلالة في هذا المجال، بل هي توحى بالعبرة البالغة التي تؤذيها للانسان في رحلتها هذه بين الحياة والموت، عبرة تحمي الانسان من أن يذسى نفسه والمسافة التي يقطعها بين حياته وموته تؤدي به إلى الكفر والطغيان.

فعلى صعيد الكناية باللون الأخضر نقرأ هذه الآية الدالة على قدرة الله التي تحيي الأرض الميتة بالماء النازل من السماء، فتصبح الأرض سخررة بالذبات والزرع وهي قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٣).

يتخذ القرآن من هذا المشهد الطبيعي الخلاب دليلاً حسيماً مشاهداً على قدرة الله في بعث الحياة من الموت في مشهد مذكور تتملاه العين ويتحسسه الوجدان، وهو مشهد

(١) صفوة التفسير: ٢٩٨ / ٣، ٢٩٩.

(٢) ينظر: مع القرآن في عالمه المريح، د. عماد الدين خليل، ص ١٩٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٣.

عجيب كما دلَّ الاستفهام بالهمزة الذي تصدر الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ وهو استفهام يقيد (التعجيب) من هذه الظاهرة المتكررة، ظاهرة بعث الحياة من أعماق التربة الميتة، فلفت الانتباه إليها بهذا الاستفهام، فهي تثير نوازع التأمل والتفكير في المشاهد.

وهذه الحياة المتنبئة من الموت تدل عليها الكناية باللون الأخضر التي تصبغ الأرض على امتداد البصر: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، والمعنى القريب الذي تشير إليه الكناية هو: " فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحولها، وجاء المعنى بصيغة المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن " (١) فهي قدرة الله العظيمة تتجلى ليس في بعث الحياة في الأرض الميتة فحسب، وإنما الحياة الهادقة المرتبطة بحياة الإنسان ارتباطاً يثير فيه نوازع الخير وتحسس الجمال من خلال هذه الأرض المكسوة بالجمال المنظور.

أما المعنى الكنائي البعيد الذي تشير إليه، فهو إثبات البعث والنشور، أي بعث الموتى إلى الحياة لحسابهم جزائهم، وقد لاحظ ابن عباس - رضي الله عنهما - هذا المعنى والغرض الذي تهدف إليه هذه الكناية بقوله: " إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور، فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت " (٢) وهذا المعنى يتجلى من الكناية أولاً، ومن طبيعة القرآن ومنهج في إثبات فكرة البعث والنشور ثانياً، فالقرآن على الأغلب " يتخذ من صور الطبيعة الحية، وسيلة لإثبات البعث والنشور، ولما كانت أحوال النبات حية ماثلة للعيان، يشهداها الناس مراراً وتكراراً، فإن القرآن أهتم بها كثيراً. وبعض أحوال الذبابة والشجر، لها صورة مقارنة لعملية البعث والنشور نفسها، كما يدلنا عليها التعبير القرآني " (٣) وهذه المقارنة بين بعض أحوال النبات والشجر وعملية البعث والنشور تتضح من خلال مفهوم عملية البعث، فمفهومها هو: " أن الأجسام التي فقدت الحياة، لا تثبت أن تنبض بالحياة من جديد، وتخرج من باطن الأرض، فهذه هي صورة البعث، كما يستحضرها الخيال بدلالة القرآن، وخروج النبات من الأرض الهامدة الساكنة التي لا تبدو فيها حياة، شبيهة بهذا الإخراج " (٤) كما أن الماء هو أنسب ما تمثل به الحياة، فقد اقترنت

(١) صفوة التفسير: ٢ / ٢٩٧، وينظر: الكشاف: ٣ / ١٣٢.

(٢) صفوة التفسير: ٢ / ٢٩٧.

(٣) الطبيعة في القرآن الكريم، د. كاسد ياسر الزبيدي، ص ٣٤٦.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٤٦-٣٤٧.

الحياة في كل أشكالها في القرآن بالماء، ويشير إلى ذلك كثير من آياته^(١)، فهو قوام الحياة، والعنصر الرئيس في بنيتها وتركيبها "فالحياة والماء كالثشي وظلّه، وما يطرأ على الشيء من تحول أو تبدل، يستتبع بالضرورة تغييراً مماثلاً في ظلّه، ومن هنا جيء بالماء، لأنّ المتحكم بالشيء متحكم بظلّه، فمن تعذر عليه فهم حقيقة الحياة وما هيّتها، بوسعه أن ينظر إلى مصدرها، وما جعله الله سبباً لها"^(٢).

والمعنى المكنى عنه اثبات البعث والنشور الذي أشارت إليه الكناية بتناسق فذياً مع جو سورة الحج التي وردت فيه الآية^(٣)، فهي تعالج فكرة البعث بعد الموت معالجة كبيرة في شتى الصور، منها الصورة التي نحن بصددّها في مشهد من مشاهد الطبيعة.

ولا يخفى ما في الكناية باللون الأخضر من بعد جمالي محسوس لأن هذا اللون "أكثر سحراً، وأبعد عمقاً في تقبله وتأثيره"^(٤) في المتلقي من أي لون آخر وهو يصيغ الأرض الممتدة على طول البصر. وفيه إحياء كمال القدرة المطلقة التي تبعث الحياة في أزهي صورها تزيّن بها هذا الوجود ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ختام للآية يتناسق مع ما أشارت إليه الكناية في معناها القريب والبعيد، فدبيب الحياة في الأرض الميتة، وهي حياة هادفة فيها الخير والجمال، أو دبيب الحياة في الموتى لحسابهم وجزائهم يتجلى فيها لطف الله الخبير وقدرته.

والبعد الجمالي للون الأخضر يتجلى من خلال ارتباطه بالحقول والحدائق والأشجار وهذا ارتباط يشير إلى الخصب والرزق^(٥) ومن ثم فهو لون النعيم في الجنة، وقد ورد في القرآن الكريم وصف ملابس أهل الجنة بالخضرة كما في قوله - تعالى - ﴿وَلَبَسُوا ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾^(٦) وقوله - تعالى - ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مُسْنَدِينَ خُضْرًا وَإِسْتَبْرَقٍ﴾^(٧) لذلك يمكن عد اللون الأخضر في الجنة كناية تشير إلى معناها المكنى عنه البعيد

(١) ينظر: سورة النحل، الآية: ٦٥. وسورة الأنبياء، الآية: ٣٠، وسورة الحج، الآية: ٥. وسورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفياض، ص ٣١٩.

(٣) ينظر: الأيتان: ٥، ٧، مثلاً.

(٤) عالم عناصر الفن، ص ١٣٦. وينظر: اللغة واللون، ص ٧٩. وينظر: التعبيرات القرآنية والبيئة العربية، ص ٢٧٩.

(٥) ينظر: اللغة واللون، ص ١٦٤.

(٦) سورة الكهف، من الآية: ٣١.

(٧) سورة الإنسان، من الآية: ٢١. وينظر: سورة الرحمن، الآية: ٧٦.

ويتمثل في الخلود، أي خلودهم في جنات النعيم لكرامتهم على الله ﷻ الذي أخلصوا له قنعمهم وأكرمهم بالنعيم الدائم، فهو لون يشير إلى النعيم المادي والروحي سواء.

وترد الكناية باللون الأخضر في سياق مثل قرآني في صورة حسية مشاهدة، يستدل بها القرآن بإمكان البعث والنشور لأدجل الحساب والجزاء، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿^(١)﴾

قوله - تعالى -: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ كناية جاءت في سياق انكار البعث بعد الموت والذي سوغ لنا عد هذا التركيب كناية، طبيعية الأسلوب الكنائي الذي يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، كما في هذا التعبير الذي جاء في هذا المثل القرآني، والمعنى القريب للكناية: " ابراز الشيء من ضده، وذلك أبداع شيء، وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفئ النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء " ^(٢) وقد أشار الطبري في تفسيره إلى المعنى القريب، والمعنى البعيد المكنى عنه، فقال: " أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً تحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجز أحياء العظام البالية واعادتها خلقاً جديداً " ^(٣).

فالتعبير الكنائي: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ... ﴾ قائم على التضاد في المعنى، والتضاد من شأنه أن يجلي المعنى المكنى عنه في أعق صورة، فالشجر الأخضر بما فيه من رواء وماء هو نقيض (النار)، لأن الماء يطفئ النار، فتخرج مما هو مشتمل على النقيض، وهي حالة محسوسة مشاهدة في صورتها ومعناها تشير إلى المعنى المكنى عنه البعيد وهو اخراج الحياة من الموت " فالذي أخرج من الشجر ناراً، لم يكن يتوقع أن تخرج منه، قلدر على أن يخرج الإنسان - الذي يظن المشركون أنه لن يخرج - من مرقده الذي ثوى فيه، بعد أن غيبه البلى بين ظهرانيه " ^(٤).

(١) سورة يس، الآيات: ٧٨ - ٧٩. وينظر: سورة الواقعة، الآيات: ٧١ - ٧٣.

(٢) البحر المحيط: ٣٤٨ / ٧. وينظر: الكشاف: ٢٤ / ٤.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٣ / ٢١ - ٢٢.

(٤) الطبيعة في القرآن الكريم، ص ٣٤٩.

فالقُرآن في هذه الصورة الكنائية يقرب إلى الأذهان حقيقة البعث والنشور، فهو يجعل من هذه المحسوسات في الطبيعة القريبة إلى الحس والوجدان دليلاً حسيّاً شاخصاً للعيان يستدل بها على أن الناس سيبعثون وأنهم سيحاسبون على ما يقرّفون (١).
أما على صعيد الكناية باللون الأصفر الذي تشير إلى الموت والفناء بعد الحياة، فإننا نلاحظها في سياق عالم النبات أيضاً في قلبه السريع بين الحياة والموت، ذكراً ذلك في قوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَنَهُ ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطّاً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢).
تستهل الآية بالاستفهام بالهمزة الذي أقاد التعجيب فإلقت الانتباه إلى هذه الظاهرة الطبيعية المكرورة في كل زمان ومكان، وهي ظاهرة عجيبة دالة على قدرة الله ورحمته بالإنسان.

قال الزمخشري: "فسلكه: فأدخله ونظمه" ﴿يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَنَهُ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، وأصنافه من برّ وشعير ومسمم ﴿يَهْبِيجُ﴾ يتم جفافه، عن الأصمعي: لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿حُطّاً﴾ فثاقاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾ لتذكيراً وتنبيهاً، على أنه لا بد من صانع حكيم، وأن ذلك كاش عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل واهمال (٣).

وقوله: ﴿ثُمَّ يَخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَنَهُ ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطّاً﴾ على وجه الأجمال يمثل حقيقتي: الحياة المتجددة ﴿ثُمَّ يَخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَنَهُ﴾ في أزهي صورها وبريقها، وحقيقة الموت والفناء ﴿ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطّاً﴾ في صورة حسية مشهودة تتملأها العين ويحسها الفكر والوجدان، ذلك في عالم النباتات الذي يرتبط بالإنسان ارتباطاً مصيرياً.

والذي يهمن الكناية باللون الأصفر ﴿ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً...﴾ التي أشارت إلى معناها القريب وهو (الموت) المرتبط بالزرع في كل هيئاته وأشكاله وألوانه بعد تحوله من

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٥٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢١. وينظر: سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) الكشف: ٩٤/٤.

ذروة الحياة في تشكيلها الجمالي في ألوانه وخضرته ونضرتة إلى الموت في تيبسه وجفافه وزواله.

أما المعنى البعيد الذي تنطوي عليه الكناية، فقد أشار إليه عدد من المفسرين. قال ابن كثير: " هكذا الدنيا تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوراً شوهاء، والشباب يعود شيخاً هرمًا، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت " (١). وقال القرطبي: " إن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأسطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا كأن لم يكن " (٢). وقال الصابوني: " تمثيل لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً كالزرع بعد نضرتة، ثم يكون عاقبته الموت " (٣).

فقصر الحياة الدنيا أو قصر حياة الإنسان من المعاني التي أشار إليها القرآن في مواضع كثيرة (٤) وقد دللت عليها الكناية باللون الأصفر وبخاصة قصر حياة الإنسان المرتبطة بحياة النبات. وبلاغة الكناية أنها تمثل المعنى بالطريقة الحسية المألوفة للإنسان ليكون المعنى الذهني مؤثراً في الحس والنفس ولتحقق بذلك الاستجابة النفسية التي يهدف القرآن تحقيقها في المتلقي، فهذه الحياة الدنيا هي كالزرع في قلبه وتحوله من الحياة إلى الموت، والإنسان يشاهد هذا التقلب ويتحسس هذا التحول في مشهده المكرور فلا يغتر بها ولا ينسى نفسه وهو يقطع رحلته بين الحياة والموت. وحياة الإنسان، أو الحياة البشرية في نهاية المطاف لا تعدو أن تكون المعادل الإنساني لعالم النبات، وذلك لأن الإنسان يخرج من رحم أمه، لكن ما يلبث بعد رحلة تطول أو تقصر، أن يذبل ويتيبس ويغيب ثأديته في قلب التراب (٥). فالموت هو النهاية التي ينتهي إليها كل حي بعد حياة زمنية قصيرة كما دللت الكناية باللون الأصفر، بل أن القرآن يختزل هذا الزمن اختزالاً، فلا يبقَى بين الحياة

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٥٥.

(٣) صفوة التفسير: ٣ / ٧٦.

(٤) ينظر السور الآتية يونس، الآية: ٢٤ والكهف، الآية: ٤٥ والحديد، الآية: ٢٠ مثلاً.

(٥) مع القرآن في عالمه الرحيب، ص ٢٠٠.

(٦) هذه الكناية تشير إلى اللون الأسود أرجانها إلى هذا الموضع لأنها في سياق عالم النبات.

والموت أيما فاصل زمني. نقرأ ذلك في كناية لودية أخرى (٢) في سياق الذبات أيضاً، هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَمَعَهُ غُثَاةٌ أَحْوَىٰ﴾ (١).

والمعنى القريب: "أذبت ما ترعاه الدواب، من الحشائش والأعشاب، ﴿فَجَمَعَهُ غُثَاةٌ أَحْوَىٰ﴾ أي فصّيره بعهد الخضرة أسود بالياً، بعد أن كان ناضراً زاهياً" (٣).

والبادي أن المعنى أشمل من هذا، وذلك لأن المرعى كل ذبات، وما من ذبات إلا وهو صالح لخلق مما خلق الله. فهو هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا، فالله خلق هذه الأرض وقدر فيها أوقاتها لكل حي ينب فوق ظهرها، أو يخدب في جوفها، أو يطير في جوها (٤).

والكناية باللون تتجلى في قوله - تعالى - ﴿فَجَمَعَهُ غُثَاةٌ أَحْوَىٰ﴾ والأحوى هو اللون الأسود الذي ينتهي إليه المرعى عند ذبوله وسوته. جاء في أسلمس البلاغة: "وشعر أحوى: أسود، ورجل أحوى: شاب أسود الشعر" (٥)، والغناء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات (٦). فهو الموت واليلى بعد الخضرة والحياة في تلك السرعة التي لا نلمح فيها فاصلة زمنية بين الحياة والموت كما أقاد ذلك حرف العطف الفاء الذي يغيد التعقيب، أي تعقيب الخروج بالذبول والموت، فلا يبقى في مدى الرؤية غير الموت الذي يكتسح الحياة.

أما المعنى الكنائي البعيد لهذه الصورة الموحية فهو سرعة زوال الحياة الدنيا التي يغير بها الإنسان ويؤثرها على الحياة الباقية. وهذا المعنى المكنى عنه يتسق مع جو السورة والحديث عن الحياة الدنيا والحياة الآخرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٧).

الكناية باللون غير المباشر:

في القرآن كنايات لودية، يدرك اللون فيها في صورة غير مباشرة فيشير اللون المتداعي إلى دلالاته، وترد هذه الكنايات غير المباشرة في مشاهد يوم القيامة، نلاحظها نعلو

(١) سورة الأعلى، الآية: ٤٠.

(٢) صفوة التفاسير: ٣ / ٥٤٨.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٥٤٩.

(٤) مادة (حوى). وينظر: كتب الملعب، للنمري، ص ٦٩.

(٥) ينظر: لسان العرب: ١٥ / ١١٦ (غثا).

(٦) سورة الأعلى، الآية: ١٦-١٧.

وجوه الفريقين: المؤمنين والكافرين على التقابل في تلك المشاهد، ألوان مشرقة تدل عليها هذه الكنايات ترسم في وجوه المؤمنين الفائزين. وألوان قاتمة ترسم على وجوه الكافرين الفاجرين على التقابل في الصورة والمعنى.

وبذلك فإن القرآن الكريم قد استعمل ألواناً عديدة تدل عليها هذه الكنايات منها: للدلالة على ثواب المؤمنين وقورهم بما توحى به من إحياءات الاشرار والتهلل والجمال والاستبشار، ومنها للدلالة على عقب الكافرين وخسرانهم بما تحمل من إحياءات الغم والحزن والتحسر والاكتئاب^(١) من ذلك:

الكناية بالأسفار والغبرة والقترة:

ترد هذه الكنايات في مشهد من مشاهد يوم القيامة في وصف حال الفريقين في قوله تعالى :- ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ حَاجَةٌ مُّتَبَيِّرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَمِرَةٌ ۖ رَمَقَتْ قَرَةٌ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْغَابِرَةُ ۖ﴾^(٢)

التقابل القائم على التضاد بين حال الفريقين هو الإطار الفني الذي يبرز المشهد ويكشف عن عمق المعاني والإحياءات للكنائيات المتضادة التي تجسد الحالة النفسية لكل من الفريقين بما يرسم على الوجوه في صورة حيوية مؤثرة.

كناية الأسفار تصور المؤمنين في هذه الصورة المشرقة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ إذ يتداعى لون مشرق من وجوههم، قال الزمخشري: "أسفر الصيح: أضاء. وخرجوا في السفر: في بياض الفجر، ورحب بنا بسفر: ببياض قبل الليل.. ووجه مسفر: مشرق سروراً"^(٣) فالأسفار "يختص باللون"^(٤)، فهي وجوه مضيئة مشرقة من البهجة والسرور. وجاءت الكناية ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ بصيغة اسم الفاعل لتوحي يتمكن هذا الوصف منهم، ويعمق هذا المعنى ويصعده الآية ﴿حَاجَةٌ مُّتَبَيِّرَةٌ﴾ بصيغة اسم الافاعل أيضاً لتدل على الثبات

(١) ينظر: الفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ١٩٨.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٨-٤٢.

(٣) أساس البلاغة، ص ٢١٤ (سفر). وينظر: الكشف: ٤ / ٥٦٤.

(٤) المفردات، ص ٣٤١.

(٥) الأصل في (اسم الفاعل) أنه ادوم وأثبت من الفعل في دلالاته، ولكنه لا يرقى إلى دُبوب الأصفة المشبهة. ينظر: معاني الأبدية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ص ٤٧ وما بعدها. أما هنا في الآية فقد افاد اسم الفاعل المتكرر (الثبات والادوم) بالنظر إلى السياق فهو كالصفة المشبهة في ثباته ودوامه.

والنوام (٢)، أي: "فرحة مسرورة بما رآته من كرامة الله ورضوانه مستبشرة بذلك الدعيم الدائم" (١).

واللون المتداعي من اشراق وجوههم وازضاءها في ذلك الموقف يمكن وصفه باللون الأبيض، وهو من الألوان الناصعة الخالصة (٢) يعمل على تكثيف تلك الحالة النفسية المسرورة المبهجة التي هم فيها ويشير إليها على نحو لا يمكن وصفها بالكلمات، بل يتخللها المتلقي ويتملاها ليدرك معناها وتأثيرها في حسه ووجدانه في ذلك المشهد العصيب. ويقابل هذه الصورة في اشراقها وسعادة أهلها الصورة الكنائية القاسية التي ترتسم على وجوه الكافرين ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَيِّرٌ ۖ رَعِقَةٌ ۖ قَرْئَةٌ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْغَيَّةُ﴾. إذ تواسجت كنايةتان لونيتان ﴿غَيِّرٌ﴾ و ﴿قَرْئَةٌ﴾ في إخراج صورة الكافرين الفاجرين لتصعيد الدلالة في الصورة والمعنى. في الصورة يتشويه منظرهم بلونين منفّرين، فمن الكناية ﴿غَيِّرٌ﴾ يتداعى لون الغبار وهو يزدُّ إلى الألوان غير الناصعة الخالصة (٣) ومن الكناية ﴿قَرْئَةٌ﴾ يتداعى اللون الأسود. قال الراغب: "ومن الغبار اشتق الغبرة وهو ما يعلق بالشيء من الغبار، وما كان على لونه. قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَيِّرٌ﴾ كناية عن تغير الوجه للغم" (٤). والفترة أصلها "من القتل والقتل، وهو الدخان الصادر من الشواء والعود ونحوهما. وقوله تعالى: ﴿رَعِقَةٌ ۖ قَرْئَةٌ﴾ نحو غبرة، وذلك شبه دخان يغشى الوجه من الكذب" (٥). وقال الزمخشري "غبرة: غبار يعلوها ﴿قَرْئَةٌ﴾ سواد كاللدخان، ولا ترى أو حش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى من وجوه الزنوج إذا غبرت، وكان الله ﷻ يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الفجور إلى الكفر" (٦).

فالكنايةتان في لونهما القاتم تشيران على نحو مكثف إلى تلك الحالة النفسية لهؤلاء في ذلك الموقف الذي يواجهونه، حالة نفسية مكروبة ملؤها الغم والحزن ومصيرها الخيبة والخسران. وهي الصورة التي تقف على التصادم إزاء صورة المؤمنين، وبالتصاد يترسخ المعنى في ذهن المتلقي لحال الفريقين.

(١) صفوة التفسير: ٣ / ٥٢٢.

(٢) ينظر: كتاب الملمع، ص ٨.

(٣) ينظر: كتاب الملمع، ص ٨.

(٤) المفردات، ص ٥٣٥. وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن، ص ٧٨٥.

(٥) المفردات، ص ٥٩٣. وينظر: أسس البلاغة، ص ٣٥٤ (قتر).

(٦) الكشف: ٤ / ٥٦٤. وينظر: التعبير القرآني والبيئة العربية، ص ١٤٠.

ويتداعى اللون الأسود في صورة كثيفة إزاء صورة مشرقة على التقابل في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَسْنَا وَرِثَةً وَلَا يَرَهُمْ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَرَهَقُهُمْ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ حَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢) فالصورة المشرقة للذين أحسنوا تتداعى من خلال نفى القتر والذلة عن وجوههم ﴿وَلَا يَرَهُمْ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي: "أي لا يغشى وجوههم دخان ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار، ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار" (٣) ونفي القتر عنهم بلونه الأسود إثبات لإضاءة وجوههم وإشراقها كناية عن سعادتهم وحالتهم النفسية المسرورة المبتهجة. فهي كناية تشير إلى كناية (الأسفار) والإشراق السابقة، إلا أن الكناية هنا تبدو أكثر إشراقاً وإضاءةً، وذلك لأنها تقف على التضاد مع الذين كسبوا السيئات في صورتهم التشبيهية: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُظْلِمًا...﴾ أي: "كأنما أليست وجوههم من قرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل" (٤) والليل بطبيعته مظلم، فلا يحتاج إلى وصفه بالسواد وهو اللون المتداعي من ﴿مُظْلِمًا﴾، لكن التقابل في سياق المشهد يعمل على إبراز عنصر التضاد حاداً قوياً من خلال تكثيف اللون الأسود ليحلي الصورة المقابلة في صورة بارزة قوية في إضاءتها وإشراقها. قال الشريف الرضي في ﴿مُظْلِمًا﴾: "وفيه زيادة معنى. لأن الليل قد سمي ليلاً وإن كان مقمراً، فلما قال ﴿مُظْلِمًا﴾، على أن التشبيه إنما وقع به أسود ما يكون جليلاً، وأبهم أثواباً" (٥) فالذهن يستخلص صورة بالغة في السواد والقيح (٦). وبذلك يشير اللون الأسود الكثيف الذي يعتري وجوههم إلى المعنى السكني عنه بمعنى وهو عظم الغم والحزن والاكتئاب الذي يصطرخ في أنفسهم في ذلك الموقف الرهيب.

ناضرة وباسرة:

- (١) سورة يونس، الآية: ٢٦-٢٧.
- (٢) صفوة التفسير: ١ / ٥٨١. وينظر: الكشاف: ٢ / ٢٦٩.
- (٣) صفوة التفسير: ١ / ٥٨١.
- (٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٥٥.
- (٥) ينظر: المشاهد في القرآن الكريم، د. حامد صائق قتيبي، ص ٣٥٠.

تصور هاتان الكنيتان اللويتان حال الفريقين: (المؤمنين والكاافرين) في مشهد من مشاهد يوم القيامة نلاحظ فيه تصاعد اشراق وجوه المؤمنين إلى الذروة حيث تتطلع إلى النظر إلى جلال ربها والاستغراق فيه. وبالمقابل نلاحظ وجوه الكافرين وهي كالحية صفراء تتوقع داهية وعذاباً ينزل بهم فيزدادون عذاباً فوق عذابهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَأْكُرُهُمْ غَايَةُ نَافِثَةٍ﴾ (١).

المؤمنون وما هم فيه من سعادة وسرور تصوره الكناية: ﴿وَجُوهٌ يَأْكُرُهُمْ غَايَةُ نَافِثَةٍ﴾ جاء في لسان العرب: "النضرة: النعمة والعيش والغنى، وقيل: الحسن والرونق، وقد تضرر الشجر والورق والوجه واللون، وكل شيء ينضر.. فهو ناضر أي حسن" (٢). وكلا المعنيين تشير إليهما الكناية: ﴿غَايَةُ نَافِثَةٍ﴾ النعمة والغنى، والحسن والرونق المرتسم على وجوههم، وأحدهما متصل بالآخر ويدل عليه. قال القراء: "أنها مشرقة بالنعيم" (٣) وقال الطبري: "حسنه جميلة من النعيم" (٤). ومثل هذا قول الزمخشري (٥). فوجوههم ناضرة مشرقة بنعيم الجنة، كما قال تعالى: - في مواضع أخرى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٦) ﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورٌ﴾ (٧) ﴿وَجُوهٌ يَأْكُرُهُمْ غَايَةُ نَافِثَةٍ﴾ (٨) أي: "إذا رأيتهم تعرف أنهم أصحاب نعمة لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورونقه" (٩). وقوله: ﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورٌ﴾ أي: "وأعطاهم نضرة في الوجه، وسروراً في القلب، والتكثير في ﴿سُرُوراً﴾ للتعظيم والتفخيم" (١٠). أي: "ذات بهجة وحسن" (١١). فنعيم الجنة الذي هم فيه مغمورون يرتسم على وجوههم بريقه ونداءه، لأن القرآن الكريم حينما يصف وجوه المؤمنين بالنضارة لا يعبر عن معنى الحسن فيها حسب، بل

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٢، ٢٤.

(٢) ٢١٢ / ٥. (نضر).

(٣) معاني القرآن: ٢١٢ / ٣.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ١١٩ / ٢٩.

(٥) الكشف: ٥٢٩ / ٤.

(٦) سورة المطففين، الآية: ٢٤.

(٧) سورة الاحسان، من الآية: ١١.

(٨) سورة الغاشية، الآية: ٨.

(٩) صفوة التفسير: ٥٢٣ / ٣.

(١٠) المصدر نفسه: ٤٩٣ / ٣.

(١١) الكشف: ٥٩٤ / ٤.

يحمل اللفظ الدلالة على الاشراف والبريق والخلوص (١) وبذلك تعكس هذه الكناية اللونية "صورة حية في وصف وجوه المؤمنين، فقد اقترنت النضرة بأحب صورة إلى نفس العرب، ألا وهي صورة النبات الناضر، وذلك أن يكون شديد الخضرة مع اشراق ولمعان متأب من طراوة الزرع ونمائه نمواً حسناً" (٢).

فهذا اللون المشرق من النور والبياض والخضرة المتداعي من الكناية ﴿نَاضِرَةٌ﴾ يشير إلى تلك الحالة النفسية التي ملؤها البهجة والسرور والسعادة بما يليق معها أو تمكنها من النظر إلى وجه الله الكريم: ﴿إِنْ يَنْهَاكُمُ عَنْ أَيْ: "تنظر إلى جلال ربها، وتهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى - جل وعلا - والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجب" (٣)، وقال الطبري: قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق" (٤). والجناس بين الكلمتين ﴿نَاضِرَةٌ﴾ و﴿نَاطِرَةٌ﴾ مبعث تأمل عميق كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين (٥) في الصلة بين معنى النضرة، وما يترتب عليه، والنظر إلى الله وما يترتب عليه، من الاسترواح في جلال الله ورضاه.

أما الكافرون فكما تصورهم الكناية ﴿كَايِرَةٌ﴾ "فجوههم: "شديدة الكلوحة والعبوس" (٦) فهي مقربة لما ينتظرها من العذاب، وفضلاً عن ذلك فهي وجوه صفراء كالحة كما أوحى الكناية، لأن اليسارة لثمرة النخل قبل أن تصير رطياً "لأن أول الثمر طلع، ثم خلال، ثم بلع، ثم بُسّر، ثم رطب، ثم تَمَرٌ" (٧)، فهي صفراء كالحة (٨)، تشير إلى ما يصطرع في أنفسهم من الغم والحزن والاكتئاب، ويتصاعد هلعهم وعذابهم النفسي، بما يتوقعونه من العذاب الشديد القاصم الذي صورته ﴿كَافِرَةٌ﴾: ﴿تَكُنْ أَنْ يَمَلَ بِهَا كَافِرَةٌ﴾ أي: "تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدته وقضاوته ﴿كَافِرَةٌ﴾ داهية تقسم فجار الظهر" (٩) فهي صفة الموصوف المحنوف داهية التي تلي بعذاب عظيم يحل بهم، فهو الخوف والرعب

(١) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ١٩٠.

(٢) التعبير القرآني والبيئة العربية، ص ١٦١.

(٣) صفوة التفاسير: ٣ / ٤٨٦.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٩ / ١٢٠.

(٥) فتحي احمد عامر، المعاني الثاني في الأسلوب القرآني، ص ٤٥٨.

(٦) صفوة التفاسير: ٣ / ٤٨٣.

(٧) لسان العرب: ٤ / ٥٨ (بسر).

(٨) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ١٩٧.

(٩) الكشاف: ٤ / ٥٣٠.

والهلع في مشهدهم العصيب، فهم يتوجسون أن تنزل بهم داهية تقصم الفقار. والتوجس شر من وقوع العذاب (١). مشهد أرهقهم فغشى وجوههم ما غشيناها من صفرة وكلاحة وعبوس وقطوب، من قبل أن تلقى هول العذاب الأكبر في نار جهنم (٢).

وتتكرر الكناية ﴿بأسر﴾ في القرآن بصيغة الفعل الماضي "بسر" في سياق يصور الوليد بن المغيرة المخزومي (٣) في صورة شديدة الإنكار تثير السخرية من حاله وهو يتهم القرآن بالسحر، وشدة الإنكار مكتسبة من كون هذه الكناية قد وردت في سياق شهد من مشاهد القيامة فتلقي ظلالها على هذا السياق الجديد وموحية بمصيرها المدحوم، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهٗ نَكَرَ وَنَدَرَ ﴿فَقِيلَ كَيْفَ نَدَرَ ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ نَدَرَ ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿ثُمَّ أَوْبَرَ ﴿وَأَسْتَكْبَرَ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا جِزْرٌ يُؤْتَرُ ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿ (٤)

الكناية ﴿وبسّر﴾ تمثل لقطة تصويرية ضمن مجموعة لقطات يرسمها التعبير القرآني الموحى "لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هي قضاء ﴿ثُمَّ يُنْزِلُ﴾ واستنكار كله استهزاء ﴿كَيْفَ نَدَرَ﴾ ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار. ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء. ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابساً، ويقبض ملامح وجهه بأسراً، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة! وبعد هذا المخاض كله، وهذا الحزق كله لا يفتح عليه بشيء.. إنما يدبر عن الذنور ويسكتير عن الحق" (٥) ويقول: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا جِزْرٌ يُؤْتَرُ ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ..

فالكناية رسمت تقطيب وجهه الكالج، فضلاً عما أوحى به من السحنة الصفراء التي تغلو وجهه وهو يتعجل بوصفه القرآن بالسحر، قال الراغب: "اليسر: الاستعجال بالشيء قبل أوانه.. وقوله ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي أظهر العبوس قبل أوانه، وفي غير وقته" (٦) فهو التقطيب المتكلف المصطنع ليخفي به الحقيقة التي يستشعرها بعدما ضاقت به الجيول ولم يدرك ما يقول في حقيقة مصدر هذا القرآن.. ولكنه التكبر يصدّه عن قول الحقيقة، فيواجهه

(١) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٦٩.

(٢) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأرق، ص ٤٦١.

(٣) قد وردت روايات المتعددة بأن المعنى هنا الوليد بن المغيرة المخزومي. ينظر: لباب القول في أسباب النزول، ص ٧٧٣.

(٤) سورة المنثر، الآيات: ١٨ - ٢٥.

(٥) في ظلال القرآن: ٥ / ٣٦٢ - ٣٦٣.

(٦) المفردات، ص ٦٠. وينظر: لسان العرب: ٤ / ٥٧ (بسر).

القرآن بالتهديد الحاسم، والسخرية اللاذعة كمال تصورهما الكناية: ﴿ثُمَّ أَكْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ ، أي: "أكبر عن الحق واستكبر عنه فقال ما قال" (١)، والسخرية تتجلى بالكناية ﴿أَكْبَرَ﴾ إذ فيها إشارة إلى (استأه) وهو يتولى عن الحق للسخرية منه والاستهزاء، وقد قَدَمَ السياق ادباره على استكباره ليؤحي أن إدباره عن الحق ونفوره منه كامن في طبيعته التي لا تتطلع إلى سماع الحق أصلاً، فكانه لم يسمعه فترتب عليه الاستكبار، فضلاً عن أن (الإدبار) حركة حسية مرئية تمهد لصفة عقلية (الاستكبار) تقريراً في نفس المتلقي، ثم لا يغفل إيقاع السياق الموسيقي الذي اعتمد الفاصلة حرف الراء يتطلب هذا التقديم لإغناء المعنى (٢).

ويبين لنا من عرض أمثلة الكناية باللون المباشر وغير المباشر أنها كانت غنية بإحساساتها، فهي قيمة فنية في تصويرها للمعاني والمشاهد فيما ترسمه من ظلال حول المعنى فتوحي بأكثر من دلالتها الظاهرة.. وهي أكثر ما ترد في مشاهد يوم القيامة بوصفها أسلوباً ذا قوة تعبيرية في تجسيد المعاني العقلية والنفسية في حيوية وقوة تأثير وإمتاع.

(١) الكشف: ٥١٩/٤.

(٢) إن اللغة في القرآن الكريم تؤدي دوراً كبيراً في إعطاء الموسيقى ذلك أن الموسيقى فيه لا تدب من وزن

شعري كالذي عرفناه في تفعيلات الشعر العربي، ولكنها تتبع من اللغة نفسها، من انتلاف الأصوات في اللفظة الواحدة وفي سياق الألفاظ وتناغمها وتناغمها وأدائها للمعنى ودلالته عليه، وقد بلغت هذه الخصيصة في القرآن النزوة في التكامل والوضوح. "الجرس والإيقاع في تعبير القرآن"، د. كاصد ياسر حسين، ص ٣٤٢ - ٣٤٣. وينظر: فقه اللغة العربية، د. كاصد ياسر الزبيدي، ص ١٣٦. وينظر: جرس الألفاظ ودلالاتها في: البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر هلال، ص ٢٨٨ وما بعدها.